انسجام النص

- **في مفهوم الانسجام:**

يظهر أن الآليات التركيبية أو الشكلية لا يمكنها أن تحقق منفردة نصية النص، مما يعني انها في حاجة إلى أدوار أخرى لضمان هذه النصية، وهذا منوط بالمستوى الدلالي الذي هو مدخل لانسجام النص وهذا الاخير لا يتعلق بمستوى التحقق اللساني، ولكنه يتعلق بالأحرى بتصور المتصورات التي تنظم العالم النصي بوصفه متتالية تتقدم نحو نهاية.

فالمكون الدلالي يتعامل مع التتابع والاندماج التدريجي للمعاني حول موضوع معين وبهذا فهو منوط بالجانب الدلالي للنص مع أن دراسة الانسجام لا تتسنى إلا من خلال دراسة البنية الكلية أو الكبرى التي هي الأخرى مكونة من مجموعة من البنيات النصية الصغرى المتضافرة لتأطير انسجام النص ذلك ان صيرورة الفهم تعود إلى تحليل المعلومات التي تنقلها البنية الفوقية للنص، كما تعود إلى ترجمتها بمصطلحات المضمون ، أي بسلاسل من القضايا.

جعل فان دايك مفهوم الانسجام أساسيا ، وانطلق منه في نقده لمفهوم التماسك الشكلي ، إذ يرى أن انسجام النص لا يمكن حسابه بالوسائل اللغوية وحدها، بل هو «خاصّية (سيمانطيقية) للخطاب، قائمــة على تأويل كل جملة مفردة متعلقــة بتأويل جملة أخرى » و من رأيه أن العلاقات بين الجمل والقضايا يمكن أن توجد من دون أن يُعبر عنها، وهو السبب الذي من أجله كان كل تركيب نظري للنص ضروريا لبيان كيف يمكن أن تؤوَّل أنواع النصوص على وجه الانسجام، حتى ولو ظلت معظم القضايا التي بها في حاجة إلى إثبات انسجامها .

ويرى براون و يول أن وحدة النص لا تتحقق فقط بوجود الأدوات النحوية الرابطة للنص، بل تتحقق بوجود الرابط المعنوي الضمني، إذ من السهل أن نجد نصوصا نفهمها بكل تلقائية على أنها متماسكة، لا يظهر فيها إلا القليل من الأدوات الظاهرة المعبرة عن علاقات التماسك. فإن القارئ لهذه النصوص يفترض بكل تلقائية أَن توالي الجمل هنا يؤلف نصا، وإن القارئ سيفهم الجملة الثانية في ضوء الجملة الأولى. فهو سيتلمس وجود علاقات معنوية قائمة بين الجمل.

ونلاحظ مثل هذا الفهم أيضا عند هاينه من وفهيفجر؛ إذ يريان أَن وحدة النص «لم تعد تقاس فقط من خلال الظواهر السطحية، بل يبحث عنها في أبنية القاعدة الدلالية، ممّا يتم شرحه بناء على النماذج الأساسية الدلالية؛ مسائل المركبات المعقدة، تناسق النصّ، وأيضا – مع استثناءات-استقلالية النصوص».

ومن بين التعريفات التي وضعت لهذا المفهوم، تعريف سوفنسكي الذي يصف الانسجام بالقول: « يقضى للجمل بأنّها منسجمة إذا اتصلت بعض المعلومات فيها ببعض، في إطار نصّي أو موقف اتصالي، اتصالا لا يشعر معه المستمعون أو القراء بثغرات أو انقطاعات في المعلومات» وبحسب هذا التعريف لايمكن للجمل أن تكون منسجمة، ومن ثم يمكن لنا أن نسميها نصا، حتى يتصل ما فيها من معلومات بعضها ببعض، ليتسّى للمتلقي بعد ذلك فهم فحوى النص، لكي يتحقق الغرض التواصلي من النص . وهذا ما أكده (ليفاندوفسكي) بقوله: « ليس الانسجام محض خاصّية من خواص النص، ولكنه أيضا حصيلة اعتبارات معرفية (بنائية عند المستمعين أو القراء، الانسجام حصيلة تفعيل دلالي ... ينهض على ترابط معنوي بين التصورات والمعارف، من حيث هي مركب من المفاهيم وما بينها من علاقات، على معنى أَنها شبكة دلالية مختزنة، لا يتناولها النص غالبا على مستوى الشكل، فالمستمع أو القارئ هو الذي يصمم (الانسجام) الضروري أو ينشئه» .

ينشأ عن التدرج نحو الانسجام فيما ما تعبر عنه الجمل ومتواليات الجمل من قضايا، ما يسمى ببنى النص الصغرى. أما البنى الدلالية الأشمل، التي لا تشخص مباشرة من طريق العلاقات بين قضايا مفردة، بل تشخص في حدود ما نجريه على تلك المجموعات والمتواليات من إجراءات، فهي البنى التي تنتج هذا النوع من القضايا والمتواليات الكلية، التي تؤلف ما يسمى ببنى النصّ الكبرى.

ويرى فان دايك أَن القضايا التي نسلم بها على أنها تنشئ الانسجام النظري للنص، والتي لا يعبر عنها في النص تعد حلقات مفقودة في سلسلة المعنى ، ويمكن أَن يعاد تركيب هذه الحلقات المفقودة بوساطة ما يسمى بقوانين الاستدلال، أو القوانين والإجراءات وى التداولية، والنظرية المعرفية كما يتدعم الترابط المفهومي للنص، بوسائل الانسجام كالعناصر المنطقية؛ كالسببية والعموم والخصوص، ومعلومات عن تنظيم الأحداث والأعمال والموضوعات والمؤلف، ويتدعم كذلك بتفاعل المعلومات التي يعرضها النص مع المعرفة السابقة بالعالم.

وإذا كانت علاقات التماسك اختصت بتفكيك النص، والبحث عن العناصر اللفظية التي تمنحه صفة التماسك، فإنه في هذا المستوى سيختص بإعادة بناء النص، وبالربط العلائقي بين جميع وحداته وعناصره. فالمستوى الدلالي لبنية النص، لا يتحدد إلا من طريق الربط والتحول؛ ربط الوحدات المفصلية مع بعضها، ومع بقية العناصر في بنية النص، والتحول من قضية إلى أخرى، وكذلك من التفكيك إلى الفهم والتأويل ،« فالبنية -إذن- نسيج متماسك لوحدات متعالقة، والوحدات تشع دلالاتها من خلال تعالق السطح والعمق والدلالات تشي برؤية العالم» .

- **أهمية الانسجام:**

ويفيد الانسجام في توضيح طبيعة النص بصفته نشاطا بشريا، أن النص لا يفيد معنى بذاته، بل يتم ذلك بالتفاعل بين المعرفة التي يقدمها النص وما لدى المتلقي من معرفة مختزنة عن العالم. وينتج عن هذا قيام تعاون بين اللسانيين النصيين والباحثين في علم النفس المعرفي، من أجل استكشاف بعض الأمور الأساسية التي تفيد في تفسير النص. كما إنه بوسع المستعملين المختلفين للنص، تأليف معان مختلفة بعض الشيء عن معنى النص ؛ إلا أن لأغلبهم، على الرغم من ذلك، نواة مشتركة متسعة للمحتوى والعمليات المحتملة، تحد من تصبح فكرة معنى النص، فكرة مفرطة في عدم الاستقرار.

إذن نفيد مما تقدّم أن مفهوم الانسجام Coherence قدّم ليكون مفهوما موازيا ومكمّلا لمفهوم التماسك، إذ لا تقتصر وحدة النص، والخاصية النصية فيه على العلاقات التركيبية، بل يشمل العلاقات المعنوية التي لا تظهر في البنية السطحية للنص، والتي يستدل عليها من خلال الموقف والاتصال، ومن خلال ما يتصل بالتجربة الإنسانية، و تفاعل المعلومات النصية مع المعرفة السابقة بالعالم للمتلقي.

- **الانسجام والبنى الكبرى**

ويعود إلى مفهوم "البنية الكبرى" إلى فان دايك، هذا المفهوم يعتمد بشكل أساسي على النص، بوصفه متواليات تشتمل كل منها على عدد من الجمل، وتصبح هذه المتواليات متماسكة دلالياً، حينما تقبل كل جملة فيها التفسير والتأويل في خط داخلي، يعد امتدادا لتفسير غيرها من العبارات الماثلة في المتوالية. أو من الجمل المحددة المتضمنة فيها، ومن هنا فإن مفهوم النص

تتحدد خصائصه بفكرة التفسير النسبي؛ أي تفسير بعض أجزائه بالنسبة إلى مجموعها المنتظم كليا؛ أي إن البنية الكبرى للنص التي هي تمثيل تجريدي للدلالة الشاملة للنص.

وعن كيفية تحديد البنية الكبرى، يرى صلاح فضل أن القراء يختارون من النص عناصر تختلف باختلاف معارفهم واهتماماتهم، من ثم يمكن أن تتغير البنية الكبرى من شخص إلى آخر، وعلى الرغم من هذه الاختلافات، يلاحظ على مستوى التفسير الإجمالي لنص ما وجود توافق كبير بين مستعملي اللغة، ومن دون هذا التوافق الذي تحدده اصطلاحات علوم الاتصال، يستبعد كل فهم ضروري لانتقال المعلومات .

و تبعا لذلك يعد مصطلح **" البنية الكبرى"** مصطلحا نسبياً، وإن الذي يحدد إطاره هو المتلقي؛ لأن مفهوم التماسك ينتمي إلى مجال الفهم والتفسير الذي يضفيه القارئ على النص. وعليه فإن تأويل النص من جانب القارئ، لا يعتمد فحسب على استرجاع البيانات الدلالية التي يتضمنها النص، بل يقتضي أيضا إدخال عناصر القراءة التي يملكها المتلقي، داخل ما يسمى بكفاءة النص أو إنجازه، فإن نظم العقائد والأعراف والأبنية العاطفية، وما يطلق عليه اسم الشفرات المساعدة ، تسهم كلها في صنع الخاصّية الدلالية للنص ، وهذا يعني أن القارئ لا يقوم بعملية الترجمة للبيانات الواردة في النص فحسب، بل هو الذي يضع لها نوع الإطار الذي يراه من خلاله.

وإذا كانت البنى الكبرى يمكن أن تختلف جزئيا من شخص إلى آخر، فإن مبادئ تكونها لا تكاد تتغير في حد ذاتها، وترتبط هذه البنى الكبرى بالقضايا المعبر عنها بجمل النص، بوساطة ما يسمى "القواعد الكبرى"، فهذه القواعد تحدد ما هو الأكثر جوهرية في مضمون نص متناول ككل، وعلى هذا فإن القواعد الكبرى تلغي بعض التفاصيل، وكي تقصر من ثم معلومات النص على تكوينها الأساسي. ومن الممكن التفريق بين مستويات عدة في البنية الكبرى للنص، إذ من الممكن تلخيص الصفحة الأولى لرواية ما، في قضية واحدة، لكن القضايا الكبرى المؤلفة من مجمل الرواية، يمكن أن تتحول بدورها إلى قضايا كبيرة أعلى مرتبة، بوساطة القواعد الكبرى ويطلق عادة على البنية الكبرى للرواية حينما تتناول بأكملها دلالة الرواية

وتمتاز البنية الكبرى المؤلفة من المجموع الكلي للنص، بطبيعة شمولية، وبطابع كلي، وبأبعاد إطارية، وبحسب صبحي الطعان، فإنّنا « نسلط العدسة النقدية لا على نقطة محدّدة من النص، وإنما للقيام بعملية المسح الشامل والدقيق للنصّ كلّه، أي البدء بالمرحلة الأولى من مراحل الكشف وهي المرحلة الاستكشافية، وأثناء قيامنا بهذه العملية، تنكشف لنا لعبة اللغة

عبر النص؛ إطناب، كثافة، مفردات منعزلة مساحات لغوية مختلفة، فتصور البنية الكبرى – بحسب فان دايك- لا يؤدّي إلى تصور التماسك الكلي بين وحدات النص الكبرى فحسب، بل يؤدي كذلك إلى تصور التماسك الجزئي بين الجمل والمتواليات الجملية أيضا، ومن ثم فإن تحليل النصوص يعتمد على رصد أوجه الترابط، والانسجام، والتفاعل بين الأبنية الصغرى الجزئية، والبنية الكلية الكبرى التي تجمعها في هيكل تجريدي.

- **التشاكل وأثره في تماسك النص:**

سبقت الإشارة إلى أن اللسانيات النصية تعمل على الكشف عن ظاهرة التشاكل أو التناظر الواقعة في النص، من خلال توظيفها للكثير من العلاقات التي تربط بين المفاهيم بمحاولة توسيع نطاقها داخل النص، ذلك إذا علمنا أن « المرء يملك مجموعة من المفاهيم في صورة شبكة من العلاقات الدلالية تختلف بالطبع في كمية المخزون، وكيفيته نتيجة الفروق الفردية، إلا أن لهذه العلاقات الدلالية أهمية سواء عند إنتاج النص أو عند تلقيه ».

وقد كان لعلم النفس الإدراكي اسهام كبير في هذا الجانب من خلال اكتشاف كيفية تخزين المعلومات في الوعي، فقد وجدوا تجريبيا بواسطة اختبار التداعي أن المفهوم لا يخزن منعزلا في الذاكرة، وإنما توجد بين بعض المفاهيم علاقات وثيقة.

وقد كان المعيار الثاني من معايير النصية عند ديبوجراند ودريسلر، هو الانسجام أو التضام، وهو معيار يختص بالاستمرارية المتحققة في عالم النص Textual World، ويعنى بها الاستمرارية الدلالية التي تتجلى في منظومة المفاهيم والعلاقات الرابطة بين هذه المفاهيم.

ينطلق النصيون حديثا من معطيات ثلاثة للتعريف بظاهرة التضام كما قام باقتراحها "روبرت دي بوجراند" وتقوم على استبدال المجالات الثلاثة المعروفة تقليديا في السميوطيقا وهي: التركيب و الدلالة و التداولية بثلاثية جديدة هي: الوصلية التتابعية، ووصلية مجموعة الأحداث و الخطط و الأهداف ووصلية المفاهيم .

وعليه يشتمل الانسجام على « الإجراءات المستعملة في توفير الترابط بين عناصر ظاهرة النص كبناء العبارات و الجمل و استعمال الضمائر وغيرها من الأشكال البديلة» واستخدام مثل هذه الظاهرة يهدف إلى الحفاظ على استقرار النص السردي، من خلال استمرارية الوقائع داخله، بوصفه نظاما من الحكي، وبالمفهوم التواصلي للنص، تستند فكرة الاستمرارية تلك إلى

الافتراض القائل: « بوجود ارتباط بين مختلف وقائع النص من جهة، وسياق استغلاله من جهة أخرى، أو بمصطلحات معرفية: أن لكل واقعة قيمة بصفتها وسيلة في التوصل إلى بعض الوقائع الأخرى على الأقل».

فـ "الرجل والمرأة" ليسا مترادفين، إلا أن ورودهما في النص على هذه الشاكلة ما يساهم في بناء النصية. فالعلاقة التي تحكم كلا من "الذكور-البنات" علاقة تعارض، إضافة إلى علاقات أخرى واردة في المثال، مثل الكل – الجزء، أو الجزء- الكل، أو عناصر من نفس القسم العام، على أن القارئ يتجاوز صعوبة اكتشاف مثل هذه العلاقات بخلق سياق تترابط فيه العناصر المعجمية معتمدا على حدسه اللغوي وعلى معرفته بمعاني الكلمات وغير ذلك.

وهو موضوع يدخل في باب التشاكل الذي هو :« توارد زوج من الكلمات بالفعل أو بالقوة نظرا لارتباطها بحكم هذه العلاقة أو تلك».

كما يعني التشاكل المصاحبةَ المعجمية Collocation، ويراد بها العلاقات القائمة بين الألفاظ في اللغة مثل :علاقة التضاد، وعلاقة التقابل، وعلاقة الجزء بالكل، وعلاقة الجزء بالجزء، مما يشيع في منطق الدلالة.

وكان الكلام في هذا المستوى يختص بإعادة بناء النص وبالربط العلائقي بين جميع وحداته وعناصره؛ فالمستوى الدلالي لبنية النص لا يتحدد إلا من خلال الربط والتحول: ربط الوحدات المفصلية مع بعضها ومع بقية العناصر في بنية النص، والتحول من التشريح والسكوت إلى الفهم و التأويل و الدينامية.

فالتشاكل نوع من أنواع الاتساق المعجمي، حيث يرتبط عنصر بعنصر آخر من خلال الظهور المشترك المتكرر في سياقات متشابهة، مثل الكلمات "الحرب-الأعداء-الصراع-الجنرال" و "المجتمع-الاقتصاد والطبقة" و"محاولة –نجاح" و"ملك-سلطة" ...إلخ.

ويكتسي هذا النوع صعوبة في التحليل؛ حيث يعتمد على المعرفة المسبقة للقارئ بالكلمات في سياقات متشابهة بالإضافة إلى فهم تلك الكلمات في سياق النص المترابط.

- **التشاكل وبناء العالم الدلالي للنص:**

يتم تشييد المعنى النصي عبر مجموعة من العلاقات الدلالية الممكنة بين مفردات النص انطلاقا من مبدأ التشاكل بين الدلالات عالم النص، وهذا التشاكل يعمل وفق استراتيجيتين اثنتين ألا وهما : الاختلاف والارتباط:

- **استراتيجية الاختلاف:**

يعني الاختلاف في اصطلاح اللسانيين والسيميائيين التقابل أو التضاد والتغاير حيث تترابط الكلمات مع بعضها البعض من خلال أشكال التغاير المختلفة فهو علاقة تربط بين طرفين أو موقفين أو حدثين متعارضين، وتتميز هذه العلاقة باستخدام ألفاظ التضاد التناقض .

ويتحقق الربط في النص بعلاقة الاختلاف من خلال توقع القارئ للكلمة المقابلة، فالكاتب يساعد القراء على الإبحار داخل النص من خلال سلاسل الكلمات المترابطة التي تخلق التماسك في النص ، وهذا غير محدود بأزواج الكلمات في جمل متاخمة، ولكنه يحدث في سلاسل مترابطة طويلة قد تقع داخل حدود الجملة، أو خارج حدودها في جمل أخرى.

- **الانسجام واستراتيجية الارتباط بموضوع معين:**

تعد بنية التشاكل أو النظيرة التي جاء بها غريماس شكلا من أشكال الربط داخل الرواية، تقوم بدور أساسي في بناء موضوعها من خلال الظهور المشترك للكلمات، وارتباطها بموضوع معين ، فيسهم في صنع وحدة النص من خلال تنوع الموضوعات داخله فنجد مثلا: موضوع الخمر أو الحب أو السفور أو التصوف أو الخداع أو الحماسة أو الألم...إلخ، في كل موضوع من الموضوعات يبرز مخزون الكاتب اللغوي عبر تضام مجموع الكلمات المرتبطة بذلك الموضوع، «والتي تمثل أساسا مشتركا مع المخزون الإدراكي لدى المتلقي ، مما يسهم في إدراك وحدة النص وتماسكه» .